

شخصية الطفل في رواية "الفراشات والغيلان"

الباحثة: منال عطوي، طالبة دكتوراه

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

Chaque production littéraire sous-tend un nombre d'éléments essentiels ; le roman littéraire en détient similairement ses propres éléments qui sont utilisés dans la construction de son récit tels que le personnage, considéré comme étant la pierre angulaire entrant dans l'édifice des événements et de leurs tissages avec le nœud de l'histoire, considéré également comme composite réaliste reflétant l'image de la société. C'est ce que met en évidence le roman *Papillons et ogres* de Azzedine Djelaoudji qui en décrivait la souffrance infantine, exposée au vagabondage, à l'orphelinat et à la pauvreté, et qui en faisait de l'enfant-personnage la figure majeure narratrice de l'histoire.

لكل عمل أدبي عناصر أساسية يقوم عليها ،
والرواية كجنس أدبي له مقوماته الخاصة التي يعتمد
عليها في بناء خطابه السردي، كالشخصية التي
تعتبر الركن الفاعل في صنع الحدث وتحريكه
باعتبارها ذات بناء واقعي مركب يعكس حال
المجتمع، وهذا ما تبرزه رواية "الفراشات والغيلان"
للروائي عز الدين جلاوجي الذي تحدث فيها عن
معاناة الطفولة وما تتعرض له من تشرد ويطم وفقر،
جاعلا من الطفل شخصية رئيسية تقوم بسرد الحدث.

توطئة:

عرفت الحركة الإبداعية والأدبية في الوطن العربي ازدهارا وتطورا كبيرين، نتج عنه ظهور العديد من الأجناس الأدبية ولعل أهم هذه الأجناس الرواية التي تحتل الصدارة الأدبية سواء من حيث الانتشار أو من حيث الدراسة، فهي من أهم الأنماط القصصية التي تفرض نفسها على القارئ والناقد على حد سواء .

وقد استطاعت الرواية الجزائرية أن تحتل مكانة مرموقة في فضاء الأدب العربي، وهذا ربما راجع إلى استيعابها الأسس الفنية التي يقوم عليها العمل الروائي وكذلك لارتباطها بالتحولات التي يمر بها المجتمع، باعتبار أن هذا الجنس الأدبي عالم غير محدود من التخيل يفتح على العديد من المجالات والمواضيع ، فظهر العديد من الروائيين الجزائريين الذين ساهموا في إثراء هذا الفن من خلال كتاباتهم المتعددة والمتنوعة، على غرار الروائي عز الدين جلاوي.

ومن بين العناصر التي يقوم عليها العمل الروائي نجد الشخصية ، هذه الأخيرة يختلف بناؤها وتشكيلها من مبدع لآخر كما يختلف دورها الاجتماعي الذي تتقمصه، فهناك العديد من الكتاب الذين جعلوا الطفل شخصية رئيسية في عملهم الروائي هذه الشخصية تعمل على تحريك الأحداث في المتن الروائي وذلك من خلال الدور الذي تؤديه، فقد احتل "الطفل" حيزا ملحوظا في العمل السردي إلا أن هذا الحيز -بالرغم من سعته- يبقى يحفز الدارسين على البحث في أسباره لاكتشاف هذا العالم الذي أصبح مجالا للتداول الرمزي واللغوي والاجتماعي. والروائي عز الدين جلاوي في روايته "الفراشات والغيلان" جعل من الطفل محمد شخصية رئيسية عليها تقوم أحداث الرواية، وسنسلط الضوء في هذه المداخلة على هذه الشخصية محاولين الوقوف على بنائها الداخلي وأبعادها الاجتماعية والنفسية. وعليه فالإشكالية الرئيسية التي نحاول البحث فيها والإجابة عنها تتمثل في :

-ما مفهوم الشخصية ؟

-ما مميزات شخوص الأطفال الذين يصورهم المتن الروائي؟ وإلى أي حد استطاع النص الروائي أن يعكس واقع الطفولة؟

-كيف صور الروائي عز الدين جلاوي شخصية الطفل في روايته الفراشات والغيلان؟
أولاً: الشخصية في الرواية:

لكل معمارية أركان تقوم عليها ، والرواية كجنس أدبي لها مقوماتها الخاصة التي تقوم عليها في تشكيل شخصياتها وإخراجها في قالب فني متكامل، فالشخصية من أهم هذه المكونات التي تعتبر العنصر الهام في اللعبة السردية، إذ لا يمكن الاستغناء عنها ولا تجاوز دورها في الخطاب الروائي العام فتميز " شخصية ما هو إعطاؤها الصفات التي من المفروض أن أن يكون الشخص الذي تمثله في الواقع يتصف بهذه الصفات، معنى ذلك أن تمنح للشخصية الصفات المعنوية والجسدية للشخص الذي تجسده " ¹. أي أن الشخصية صورة عاكسة لأشخاص معينين في المجتمع وقد تكون لأشخاص خياليين ويجب أن يتم ذلك على تصور الراوي وتخيله الأدبي الذي سلطه على عنصر الشخصية " ولقد نُظر إلى النص الحكائي وفق هذا لتصور ذلك أن ما هو أساسي فيه هو الأدوار التي تقوم بها الشخصيات ، فعن هذه الأدوار ينشأ المعنى الكلي للنص" ².
بناء على هذا اتجهت الدراسات في العصر الحديث إلى تركيز الاهتمام على الشخصية الروائية واستعادة أهميتها ومكانتها في الخطاب السردية ، " فلم تبق الشخصية تابعة للحدث أو منفصلة به ، وإنما تصبح جزءاً مكوناً وضرورياً لتلاحم السرد" ³ هذا إن دل عن شيء فإنما يدل على مكانة هذا المكون السردية وقدرته على تجسيد ما هو شخص فعلا في الواقع ، وبالتالي يصبح لها إيها ما على تبليغ رسالة الكاتب إلى المتلقي أو هي تلخيصاً لحالات سيكولوجية ، أو انعكاس لتجربة المؤلف ذاته في الرواية.
بذلك تصبح الشخصية مرآة عاكسة لهذه التجربة ، وفي الرواية الحديثة " يمكن أن يظهر المضمون السيكولوجي للشخصيات سواء بتقديم الحياة الداخلية التي تعيشها أو عن طريق تحليل مظاهر تلك الحياة ...وفي العديد من مقاطع العمل الروائي يجعل

الروائي شخصية تحكي باسمه ... فهناك العديد من الناس يحلو لهم جعل الكاتب مشاركاً في الأحاسيس"⁴. مما يجعل هذا العنصر - الشخصية - نافذة يمكن التطلع منها إلى مساحات واسعة من الواقع الحياتي "فالشخصية الروائية هي محصلة لكثير من الشخصيات الواقعية في نفس الوقت".⁵ بهذا يشكل هذا المكون السردى دعامة العمل الروائي " وركيزة هامة تضمن حركية النظام العلائقي داخله".⁶

ثانياً: بناء الشخصية في رواية الفراشات والغيلان:

رسم الروائي عز الدين جلاوي معالم الشخصية مع ما يتوافق والحدث السردى بصدد مشاركته في المتن النصي مع باقي العناصر المكمل للحدث الروائي ، فقد اتبع الروائي هذه الخطية في إبراز الحبكة السردية ، ولعل من دوافع الكتابة لديه واتخاذ الطفل كبطل شاهد في الرواية، هو يقينه بأن هذه الشخصية البطولية هي التي تسهم في صنع الحدث وتحرك عجلة الزمن .

رواية "الفراشات والغيلان " تتحدث عن الطفل بامتياز منذ بدايتها إلى غاية سطورها الأخيرة من تحريرها ، فقد جمع عنوان الرواية بين شيئين متناقضين، فالفراشات هم الأطفال الأبرياء الذين يريدون التحليق في سماء الطفولة كما تحلق الفراشة، أما الغيلان فهي جمع كلمة غول: وهو نوع من الجن أو الشياطين والمقصود بها في هذه الرواية هم جنود الصرب المتوحشون الذين يحاولون منع الطفولة من التحليق.

فقد استهل الكاتب روايته بإهداء هذا العمل الأدبي إلى شريحة الأطفال فقال: " إلى

كل الثائرين ضد همجية الإنسان وإلى الأطفال المضطهدين في كل شبر من هذه الأرض"⁷، ثم انتقل الكاتب إلى سرد أحداث الرواية بتصويره لحالة الطفل محمد عندما كان الجنود يطاردونه ، وهو يحمل لعبته هاربا منهم ومحتفظا بلعبته التي يخاف عليها أكثر من خوفه على نفسه أو بمعنى آخر خائفا على طفولته وأحلامه الوردية حين قال: "أجري ... أتعثر... أسيج لعبتي الصغيرة بذراعي النحيلتين أضماها إلى صدري ... لا

بد أن أنفض لعبتي ... لن يدوسوها بأقدامهم الخشنة"⁸. فاللعبة عنده ليست مجرد شيء جامد فهي تنهض بكل دلالات أحلام الطفولة التي تحلم دائما بالبقاء والعيش بسلام. نتحدث رواية " الفراشات والغيلان" التي عاشتها الطفولة وما مرت به من ظروف قاسية كاليتيم والفقر والتشرد إبان الحصار الصربي حيث اعتمد عز الدين جلاوي على شخصية الطفل محمد لنقل أحداث الرواية، ولعل هذا راجع إلى تعزيز إمكانية التعاطف مع الطفولة وتعزيز الحدث باعتبار أن السارد صانع الحدث في واقعه، فكان محمد هو الصوت الناطق باسم هذه الشريحة ، فقد صوره الكاتب وهو يخوض في مسائل الكبار رغم صغر سنه وهذا إن دل عن شيء فإنما يدل على شدة معاناة هؤلاء الأبرياء الذين حرمتهم الغيلان من أدنى حقوقهم كاللعب والتعلم والأمن.

الطفل محمد هو الشخصية الرئيسية التي اعتمد عليها الروائي في تحرير عمله الفني وفي نسج خيوط روايته ، هذه الشخصية تمشي بمحاذاة تطور الحدث السردى ، فنجد محمد تارة يتخبط بين أنتاب الحدث وتارة تدب فيه الشجاعة فهمه أن يكون الطفل الرجل حتى يحافظ على حياة أخته الوحيدة المتبقية له بعد أن فتكت الأيادي السوداء بكل أهله ، وتطويع لأفعال محمد إنما هي تطويع لأحداث السرد ذاتها، باعتبار أن محمد هو ناقل الحدث، أي أنه يتغير بتغير أفعال الشخصية فيقول: "يضعض الرعب أركان جسدي المتهاوية ... تصطك ركبتي" ⁹، "اقشعر جلدي ... أفرج أشواكا طوبلة حادة ارتعدت فرائسي ... اصطكت ركبتي ... ارتجفت أصابعي" ¹⁰.

الأقوال السابقة كلها تترجم حالة الطفل النفسية التي يسودها الخوف، لكن هذا كله كان خلال فترة محددة ثم ما لبث هذا الخوف إلى تحول إلى شجاعة حين قال: "ليس رجلا من يسلم أهله للأعداد وينجو بنفسه فإن أرادوا قتلنا فسيكون أول من يموت" ¹¹، وبعده يتحدث عن إنقاذه لأخته ومحاولة أخذها إلى بر الأمان "خطفت أختي عائشة من الأرض وضعتها فوق ظهري ... جلست على الأرض وضعتها في حضني ... قبلت خدها المتورد...فحصتها...عاينت الجرح بدقة...أخرجت منديلي لففت الجرح وهي تتألم

حملت أختي وانطلقت" ¹² هذا يعبر عن وعي شخصية الطفل ونضجه وسعة تفكيره الراقى فكان دوما يتساءل " هل يمكن للإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من الوحشية فيقتل أخاه بمجرد أنه مختلف معه في لغة أو دين أو جنس ... وما كان يلقنه لنا معلمنا في المدرسة من الفضائل الإنسانية التي يجب أن نتميز بها ... ألم يكن يقول لنا أن الإنسان أخو الإنسان مهما اختلف معه ... ألم يقل لنا أن الاختلاف رحمة ؟ فكيف صار في لحظة نقمة وهلاك ودمار".¹³

إن اختيار الطفل محمد لتكون الصوت المدوي الناطق باسم الطفولة المنادي بالتححر والمطالب بحقوقه المشروعة وذلك بوصف الصوت يأتي موازيا ، إذ أن أسلوب الرواية يقوم على استخدامه كأداة للتعبير عن موقف الشخصية من أجل ربط الأحداث ببعضها البعض من جهة ولتصوير حالة الطفولة ومعاناتها من اليتيم من جهة أخرى " لقد هد الغيلان العش الدافئ ... هدوا أسرتي ... اغتالتها سهام الغدر اللعينة ... إلى أين سنلجأ؟ من يضمننا إلى حضنه ؟ من يرضعنا حنانا كنا نرضعه هنا ؟ " ¹⁴ بعدها يقرر محمد العيش في وطن آخر وهي خالته أو ليست الخالة وطن ؟ ، فقد استقبلته بكل صدر رحب مليء بالحنان والدفء " التصقت بخالتي لا أريد أن أبرحها ... طوقت رقبتها بذراعي الصغيرتين لم أكن أريد كلاما ... لم أكن أريد أن أنطق ولا أن أسمع ...أريد فقط أن أبكي"¹⁵.

كما صور لنا الكاتب صورة الطفل المتشرد عندما سأل الطفل عثمان صديقه محمد " إلى أين ستذهب يا محمد ؟ إننا نسعى على غير هدى لقد ضيعت كل أهلي وأقاربي ليس لي من أعرفه خارج قرיתי ... ولا أحد يمكن أن يأويني أو يقوم على أمري"¹⁶، فهنا تظهر لنا مآسي الطفولة المشردة الذي لم يبق لها لا مكان ولا وطن ولا حتى عائلة ، فقدت كل شيء لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تفقد صورة المجزرة التي أصبحت محفورة في ذاكرة محمد ولا يستطيع أن يمحيها، ليتحول من طفل حالم بمستقبل زاهر إلى طفل مشرد وضائع " من هذه اللحظة يجب أن نذبح الطفولة والبراءة "¹⁷.

فكابوس المباغثة لا يفارقه " سرت في جسدي قشعريرة وأنا أتخيلهم يباغتوننا ...
ويعملون فينا أسلحتهم ... مخالبتهم ... أنيابهم يقطعون رؤوسنا يغتالون الأمل من قلوبنا
"18، فما يتعرض له الطفل في صغره من أمور سلبية يبقى يؤثر عليه في كبره بدليل أن
" مشاهد العنف مثل إطلاق النار وصوت قصف المنازل والأشلاء تترك آثارا نفسية
وعقلية واجتماعية وظواهر عدم استقرار نفسي لدى الأطفال".¹⁹

بعد كل ما تعرض له محمد من أحزان ومآسي يترك وطنه ويتجه نحو الحدود
الألبانية تاركا عائلته التي فقدتها إلى الأبد تحت الثرى، فحين يبرح طفلا صغيرا وطنه
مجبرا فإن كل شيء يحترق في عينه فتتحول السماء إلى دخان والمسافات إلى مقابر
وتطمس الطفولة ، يعبر الطفل كغيره من مئات اللاجئين الحدود ويرى بأه عينيه مظاهر
البؤس والجوع والجهل والموت فيندم على الهجرة ويتجلى ذلك في قوله " أنا نادم كل
الندم ... لو كنت أعرف هذا لبقيت في وطني لأموت شريفا عزيزا لا ذليلا مهانا في
أوطان الغير. "20

بهذا يكون الكاتب عز الدين جلاوي قد وضع الطفل أمام ما هو مرئي في ترابط
ليخلق لنا صورة حية ناطقة لواقعها الذي كله مأساة ومعاناة ، هذا الراهن المعاش هو
الذي يعكس موقف الراوي ونظرته إلى الحياة والمجتمع ، لكن هذا كله كان على لسان
شخصية الطفل الذي كان قوة محركة للأحداث .

وبالتالي فقد ركز الروائي على شخصية محمد وعلى إعطائها هذا الاسم الذي لم
يمكن إعتباطيا ، إنما جاء كمقصديّة من قبل الراوي إذ يحمل هذا الاسم (محمد) دلالة
رمزية كما يدل على وجود خلفية دينية للراوي ، فهو متأثر بسيرة الرسول محمد - صلى
الله عليه وسلم- الذي كان يتيما وفقيرا ومهاجرا وهي الصفات التي يشترك فيها الطفل
محمد مع الرسول الكريم، كما توجد في الرواية أسماء دينية أخرى كاسم عثمان ،
عائشة، سليمان.

حوادث الرغبة في التحرر تظهر في مواقف عديدة وأشكال مختلفة في الرواية فكلها يعيشها البطل في مخزونه وذاكرته كالرغبة في التحرر من جنود الصرب وتحريير الأرض ويظهر هذا في المتن الروائي عندما أعجب محمد بقول أحد رجال القرية:

أرض كوسوفا كما قال أرضنا
وعليها ... فيها يجب أن نموت...
بين شغاف قلبها الدافن ندفن ...
لن نكون آخر من يموت طبعاً ... لن نترك العار لأبنائنا وأحفادنا
لا بد أن نقاوم²¹.

كان دائماً يتمتع بصفات الطفل الشجاع المقاوم للعدو والمغامر بحياته فقد ضحى بالنفس والنفيس في سبيل تحرير أرض آباءه وأجداده ، وخلق عباءة الطفل الصغير الذي لا يستطيع أن يقاوم ويواجه الظلم ، فمحمد كان رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى ويتجلى ذلك في مضمون الرواية حين قال: "ظهرنا في كامل الاستعداد ... يجب أن يكون رجالاً ... القوة والصلابة والصرامة هي السبيل إلى نجاةنا وبقائنا أحياناً فلنكن رجالاً".²²

جاءت الرواية تحمل في طياتها الكثير من الرموز الدينية والاجتماعية التي تعبر الكثير من الدلالات والنفسية التي مرت ولا زالت تمر بها الطفولة فما شخصية الطفل محمد في رواية "الفراشات والغيلان" إلا عينة صغيرة ناطقة باسم الطفولة، فاخترلت هذه الشخصية آلامها وأحزانها ومعاناتها الكبيرة من تشرد وجوع وفقر ويتم وضياح ... بهذا يكون الروائي الجزائري عز الدين جلاوي قد استطاع أن يختزل هذه المعاناة في شخصية طفولية ويبدع في تصويرها داخلياً وخارجياً، باعتبار أن " الشخصية الروائية هي محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية"²³.

من خلال إخضاع الشخصية في رواية "الفراشات والغيلان" من حيث بنائها إلى المقياس الخاص بالصفات والأفعال والتصرفات التي تكونها داخلياً فهي تراهن على النموذج النفسي أو الباطني من خلال عرض الراوي لخلجاتها وأفكارها وتساؤلاتها التي في الوقت

نفسه تعكس حالة الراوي الداخلية باعتبار أن الطفل محمد يتكلم بلسان الكاتب ، لذا نجد أحدهم ينظر إلى الرواية على أنها تصور لـ " تجربة إنسانية تعكس موقف كاتبها إزاء واقعه بنفس القدر الذي تفصح عنه عن مدى فهمه لجماليات الشكل الروائي ، والرواية تقول هذا أو أكثر من خلال أداة فنية مميزة هي الشخصية وهذا ما جعل النقاد يعرفون الرواية بأنها فن الشخصية"²⁴، هذا ما يدل على أهمية الشخصية ودورها في بناء الحدث الروائي والدفع به إلى الأمام لتشكيل خطاب سردي مميز وعليه فنجاح أي عمل روائي مرهون بقدرة الكاتب على رسم شخصياته بدقة ويجعلها مصدرا للتشويق والإمتاع مما يؤدي إلى تفاعل القارئ معها.

الهوامش والإحالات

- 1 - بوراس منصور ، البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية مقارنة بنيوية، مذكرة ماجستير، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2009-2010، ص 32 .
- 2 - حميد لحداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1991، ص 52.
- 3 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء ، الزمن ، الشخصية، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1990، ص 209 .
- 4 - المرجع نفسه ، ص 212.
- 5 - عبد الرحمان منيف، الكاتب والمنفى، دار الفكر الجديد، بيروت ، لبنان ، 1992، ص 234.
- 6 - زوزو نصيرة ، سيمياء الشخصية في رواية حارسه الظلال لواسيني الأعرج ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد التاسع ، 2006.
- 7 - عز الدين جلاوي ، الفراشات والغيلان، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، الجزائر ، 2015 ، ص5.
- 8 - المرجع نفسه ، ص 9.
- 9 - المرجع نفسه ، ص 10.
- 10 - المرجع نفسه ، ص 15.
- 11 - المرجع نفسه ، ص 13 .
- 12 - المرجع نفسه ، ص 17- 19.
- 13 - المرجع نفسه ، ص 21.
- 14 - المرجع نفسه ، ص 16 .
- 15 - المرجع نفسه ، ص 23.
- 16 - المرجع نفسه ، ص 22.
- 17 - المرجع نفسه ، ص 37.
- 18 - المرجع نفسه، ص 42.
- 19 - أحمد فضل شبلول ، الطفل والحرب في فضاء الشعرية العربية المعاصرة ، ص7، www.nashiri.net
- 20- المرجع السابق ، ص 64.
- 21 - المرجع نفسه ، ص 30- 31.
- 22 - المرجع نفسه ، ص 37.
- 23 - محمد عزام ، فضاء النص الروائي ، مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط 1 سوريا ، 1996، ص 85.
- 24 - بوراس منصور ، البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية ، ص66.